

لا تزال ترتفع بعض الأصوات منادية: أعفونا من هذه اللغة ذات القواعد الصعبة المملوءة بالأشواك بل بالألغاز، ودعونا نتخذ العامية أداةً لأدبنا حتى يكون أدباً واقعياً حقيقياً، ويضربون مثلاً لذلك القصة، يقولون: إنها حين تكتب بالفصحى تكتب بلغة لا يتكلمها شخوصها، لغة لا تصور بالضبط أفكارهم ومشاعرهم، أما حين تكتب بالعامية فإنها تتطابق مع مشاعرهم وأحاسيسهم وكل ما يدور بخلدكم. وينسون أن القصة حين تكتب بالعامية تصبح محلية لا تشيع في البلاد العربية، إنما تشيع في بلدتها أو قل في دارها وحدها. وينسون أيضاً خاصة مهمة من خواص الأدب في القصص وسواه، أنه يقوم - كما لا حظ ذلك أرسطو قديماً في الشعر - على المحاكاة. فليس فيه واقع تام، إنما فيه محاكاة الواقع، وهي تتحقق عن طريق الفصحى كما تتحقق عن طريق العامية.

ولا ريب في أن هذا الجانب من الأدب جانب المحاكاة هو الذي جعل كل من ترجموا منا القصص الغربي واقعيًا أو غير واقعي يترجمونه إلى الفصحى، ولم تستعص يوماً على ترجمته، بل لقد أدت ذلك أداءً باهراً يشهد لما قلناه من أن المدار في الأدب على المحاكاة، لا على النقل من واقع العوام طبق الأصل، ولو أن القصص الواقعي كان يُفهم هذا الفهم الضيق لظل محصوراً في لغته ولما أمكنت ترجمته إلى اللغات المختلفة.

ويقولون: دعونا من أساليب الفصحى العتيقة، إنه يكفي أن تكون بها هذه الأساليب البالية لنهجرها إلى الأبد، ولكن من قال إن أساليب الفصحى تستعصى على التطور، إنها ككل لغة في العالم تتطور وتتطور معها أساليبها، وهل هناك من ينكر أن أساليبها تطورت في العصر العباسي، عصر الترجمة ووضع العلوم، تطوراً واسعاً لا في مجال العلم والفلسفة فحسب، بل حتى في مجال الشعر، فقد نصّ الأسلاف على أن شعراء العصر العباسي الأول منذ بشار استحدثوا لأنفسهم أسلوباً مولداً جديداً كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالألفاظ الحوشية ولغة العامة الزاخرة بالألفاظ المبتذلة.

وهذا نفسه حدث للفصحى في عصرنا بصور أوسع وأرحب، إذ جعلتها